

جمعجة ولا طحن..

ومفاوضات ولا سلام.. ومجلس أمن ولا شرعية دولية!!

لا يمكننا التشكك في حسن نوايا ولي عهد المملكة العربية السعودية الأمير عبد الله بن عبد العزيز وامتلأ قلبه إشفاقاً على ما يصيب إخوته الفلسطينيين من أذى وضميم، ولا يمكننا أيضاً أن نبخس قدر مبادرته التي حملته إلى أمريكا ومقابلته البوش ابن البوش من أجل التوصل إلى موقف أمريكي مساند لتسوية القضية الفلسطينية.

كما لا يخفى أنه في ظل موازين القوى القائم إقليمياً وعالمياً أبدت غالبية الفلسطينيين طوال ما ينوف على عشر سنوات ماضية ماضية موافقتها على التسوية والسلام، بصرف النظر عن كون هذه الموافقة أشبه بتجرع العلقم. ولن نعود بعيداً للتذكير بمصير اتفاق أوسلو الانتقالي وذيوله في طابا وشرم الشيخ وواي ريفر وكامب ديفيد، وكيف جعلته الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة - على اختلاف ألوانها وأحزابها وأشخاصها - دبر أذنها وتحت قدمها. فما يحدث في الحاضر المشهود يغني عن الاستشهاد بالماضي القريب أو البعيد. والفلسطينيون الذين هم كائنات بشرية قبل كل شيء وبعد كل شيء يريدون السلام ويحلمون بالسلام، ولكن.. كما قال شوقي " وما نيل المطالب بالتمني "!

مصراع أوسلو:

* يقول لنا الحاضر المشهود إن قيادة عمليات جيش الاحتلال كانت تدير معركة وتشعل حريقاً في كنيسة المهد في بيت لحم في الوقت نفسه الذي كانت تنفذ خلاله انسحاب دباباتها المحيطة بمقر الرئيس ياسر عرفات تمهيداً لإنهاء الإقامة الجبرية المفروضة عليه. وإنما داهمت قلب مدينة نابلس في اليوم التالي، وإنما قتلت أفراداً فلسطينيين مدنيين بذريعة أنه كان في نيتهم القيام بعمليات استشهادية، وهدمت بيوتاً فلسطينية جديدة بذريعة أن سكانها إرهابيون. ويعني ذلك أن الاتفاق مع الأمريكيين لا يمنع الإسرائيليين، حسب مفهومهم، من اقتحام مناطق سكنى الفلسطينيين في أي وقت، بسبب وبغير سبب، سواء في سياق مطاردة ساخنة أو باردة، لأن هذه التعابير المختلفة تنتمي إلى اتفاق أوسلو وعصره الذي أوسع شارون قتلاً. فشارون وأمثاله في إسرائيل يجمعون بين عقيدة تدعي أن أرض فلسطين تخص اليهود وحدهم، وبين نفسية منطوية على الحقد الأسود تجاه العرب. ومن هنا كانت المذبحة سلوكاً يحقق هدفاً مزدوجاً مزدوجاً، هو تفرغ المكان لصالح الإسرائيليين بواسطة القتل، وجعل ذلك موجعاً ملبياً لنزعة الحقد المتأصلة. والانسحاب في مفهوم شارون، الذي لا يختلف الأمريكيون معه فيه هو مجرد حركة تكتيكية من أرض تخص الجيش الإسرائيلي إلى أرض أخرى تخصه. فإذا كانت هناك مصلحة في هذه الحركة قام الجيش بها وإلا بها وإلا لم يقيم بها. ومن الواضح أن شارون وهيئة أركانه قدروا المصلحة فيما فعلوه. ويعني ذلك عملياً أن الانسحابات الإسرائيلية التي يسجلها الأمريكيون في خاتمة الديون على الطرف العربي المفاوضات هي انسحابات ظاهرية تظاهرية كاذبة، كانت مطلوبة ومرغوبة إسرائيلياً قبل أن تكون مطلوبة فلسطينياً وذلك لأكثر من سبب، ومن هذه الأسباب: حيك تمثيلية الاستجابة للطلب الأمريكي. ومنها تخفيف عبء التوتر عن العساكر إذ يبيتون ويصبحون وسط أهل البلد. ومنها

منع حدوث التطبيع بين الجنود الذين فعلوا ورأوا وسمعوا ما يكفيهم وبين الوضع والمكان والضحايا. وأخيراً منع انكشاف نقاط ضعف القوات المحتلة أمام رصد المقاومين الفلسطينيين الذين يتشوقون للاستفادة من أية ساحة لضرب عدوهم. والإسرائيليون يعرفون أن جرأة المقاتلين الفلسطينيين دون حدود. ومن طريف ما يروى أن غلاماً من غزة اجتراً ذات ليلة على فك رشاش الدبابة التي نام عنها عسكرياً في مفرق الشهداء الذي يدعو الإسرائيليون مفرق نتساريم.

والخلاصة إن ما يدعونه إعادة الانتشار أو إعادة التوضع، وهو الذي يترجمه الإسرائيليون عملياتياً بسحب دباباتهم وعساكرهم من شوارع المدن والقرى إلى المشارف القريبة، هو إجراء أقل في كلفته الإجمالية من كلفة البقاء وسط الأهالي. وإنه إجراء متخذ للمصلحة الإسرائيلية.

والمصلحة الفلسطينية تفهم الانسحاب الإسرائيلي وتطلبه على أنه الانسحاب الذي تستطاع معه حياة طبيعية يمكن معها إعادة بناء ما تهدم وتعويض بعض ما خسره الناس. والانسحاب بهذا المعنى هو النهائي

الدائم لا الوقتي المراوغ.

ولكن الاحتلال لم يكن يوما في وارد السماح للفلسطينيين ببناء حياتهم بل على العكس: أراد التضييق عليهم بهدف دفعهم إلى النزوح، وجرت ممارسة هذا التضييق باستخدام قدر كبير من الغل الذي يرجع إلى التربية المقصودة.

وقد يمكن الاستماع إلى من يزعم أن بعض قادة حزب العمل الإسرائيلي كانوا جادين في تفكيرهم بالتسوية، وإن أرادوها صفقة تنطوي على أكبر قدر ممكن من الغبن بحق الفلسطينيين، أما أن يزعم أحد أن حزب الليكود أو شاس أو المفدال أو إسرائيل بيتنا وأشباههم يفكرون في شيء غير استجلاب مزيد من اليهود من الخارج (شارون يريد مليوناً)، وغير تهجير الفلسطينيين بعد قتل أكبر عدد منهم فذلك هو الضلال المبين. ومع أن رجالات حزب العمل الذين عقدوا اتفاق أوسلو وتوابعه لم يدخروا جهداً في جعل نصوص ذلك الاتفاق مجرد أنشطة مربوطة حول عنق الجانب الفلسطيني، بحيث يمكن شديها في أي لحظة وخنق حرية الفلسطينيين في التنقل بين مدنهم، وقطع أرزاقهم بمنع الفرص الوحيدة أمامهم للعمل، ووقف نشاطهم الاقتصادي بإغلاق المعابر التي يسيطر عليها الإسرائيليون ومنعهم بالتالي من الاستيراد والتصدير، فإن قادة الليكود وعلى رأسهم شامير وشارون وبنيتياهو أعلنوا معارضتهم لها وشنوا على أقطاب أوسلو حملة شعواء في أوساط الجماهير الإسرائيلية، مما ألهم التسابق نحو اليمين أي نحو التطرف في إبداء الحقد الأسود تجاه العرب أهل البلاد، ومما أدى في النتيجة إلى تهيب حزب العمل من تنفيذ الاتفاق، وإلى تجميده في الواقع حرصاً على الحزب الحاكم أن يتهم بالتفريط والخيانة، وهي التهم التي حشا أقطاب اليمين أذهان الجماهير بها، والتي نجم عنها مصرع يتسحاك رابين على يد واحد من المتهوسين أتباع الجنرالات والحاخامات، في سابقة تهدد بالموت كل سياسي إسرائيلي يحجم عن المزايدة ضد أوسلو وآثارها.

من هنا يجب أن نقف على أرضية صلبة من الفهم بأن شارون الذي عارض أوسلو في الأساس، لا يمكن له - لأسباب عقيدية جذرية، ونفسية تاريخية، وحزبية تنافسية سياسية انتخابية - أن يقيم مع العرب سلاماً يتضمن أي نوع من الشروط التعاقدية. وكل ما يريده هو الإتيان عن طريق الحيلة والخداع بقيادات فلسطينية على غرار سعد حداد وأنطوان لحد، تتلقى الأوامر وتبادر إلى تنفيذها مباشرة أو بالواسطة عن طريق الحضور الأمريكي، وربما كان الأفضل لدى شارون أن يؤدي مجيء مثل هذه القيادات المفبركة إلى إيقاع فوضى وحرب أهلية فلسطينية تستنزف الفلسطينيين وتفعل بهم ما لم تفعله الدبابات والمدافع وطائرات الأباتشي.

حب إسرائيل ديانة :

* ويقول لنا الحاضر المشهود أيضاً إن الإدارة الأمريكية التي تغلبت فيها النوازع

الصهيونية والهيمنة الصهيونية على ما كان منتظراً منها من غيرة على الدين المسيحي وقداسة كنيسة المهد التي هي الأقدس لدى الأرثوذكس والكاثوليك على حد علمنا وفهمنا، بعدما تغلبت في الأمريكيين النوازع الصهيونية والهيمنة الصهيونية نفسها على أهمية المصالح الاقتصادية الأمريكية، وبعدها وقف زعيم الإيباك (قيادة اللوبي الصهيوني في أمريكا) يتشدد بأن الكونغرس الأمريكي الراهن هو الأكثر صهيونية بين جميع الكونغرسات السابقة هذه الإدارة الأمريكية يستحيل استحالة مطلقة أن ترعى سلاماً أو تضغط على الإسرائيليين لتغيير أي شرط من شروطهم أو خطة من خططهم. إنها بالأحرى ستكون الأحرص على الإيقاع والغدر بنا، لإتمام صفقتها مع اللوبي الصهيوني في أمريكا. وموضوع الصفقة محاربة المنطقة العربية والإسلامية كلها مقابل ضمان حكم يمتد إلى ولاية جديدة للجمهوريين.

لقد كانت الولايات المتحدة منحازة لإسرائيل دائماً. ولكنها اليوم لم تعد مجرد منحازة وإنما رهينة للوبي الصهيوني الذي أصبحت له اليد الطولى في تنصيب الرؤساء والنواب. أي أن السيطرة الصهيونية صارت كاملة على السلطتين التنفيذية والتشريعية في أمريكا مما حول الديمقراطية الأمريكية إلى ديكتاتورية لوبي إحدى الأقليات الدينية في البلاد وزاد الطين بلة أن القوى الصهيونية تمكنت خلال العقد الأخير من السنوات خاصة من تدعيم وتنشيط

كنائس معينة في الولايات المتحدة جعلت من تأييد إسرائيل والمحافظة عليها ومناصرتها بل وتغليب مصلحتها على المصلحة الأمريكية جزءاً من الديانة والعبادة. فعندما يتكلم أحد زعماء تلك الكنيسة قائلاً: " إن الله إنما يرعى الولايات المتحدة لأنها تدعم إسرائيل " ! فإن هذا مؤشر من بين العديد من المؤشرات على أن الأمر في الولايات المتحدة تجاوز النقطة التي يؤمل فيها رد الأمريكيين إلى صوابهم. فهم حالة مستعصية تختلط فيها البساطة مع الانبهار بأساتذتهم اليهود الذين أوهموهم بأنهم الوحيدون القادرين على إكساب أمريكا عمقا في الروح ينقص ذلك المجتمع المستجد على الثروة والثقافة.

وأكثر الناس استغراباً من هذا الافتتان الأمريكي بالصهيونية ومن هذا الاستخذاء الراكع لها هم الأوروبيون، فهم مع تأييدهم لإسرائيل يستهجنون الانجراف الأمريكي مع أشد ممارساتها وحشية وعدوانا.

نحن نلمس في كل يوم دليلاً جديداً على أنه لا يمكن للأمريكيين أن يعاملونا بحياد

ولا يمكن لرئيس أمريكي أن يصدق في أي تعهد يقطع على نفسه حيال الحقيقة الموضوعية. وكلما تكلم أحدهم كلمة تخالف تمام الصيغة الإسرائيلية ولو كانت صيغة شارونية، عاد فتراجع عن كلمته ولحس البصقة التي بصقها. إنهم تابعون منقادون إلى درجة مقززة ومقزعة. ولن ننسى نحن الفلسطينيين ما حيننا كيف تكلم البوش ابن البوش ملتصقا من شارون الانسحاب من الضفة في أسرع وقت.. ثم فوراً.. ثم الآن فوراً.. فلم يكن من شارون إلا التجاهل بل والرد بأن الانسحاب سيجري عندما تحقق الحملة أغراضها. ولن ننسى ما نشاهده حتى اللحظة الحاضرة، وهو أن القيام بانسحاب ظاهري تتلوه عمليات تغلغل في جميع المدن والقرى، لا يمكن أن يكون إلا تواطؤاً بين أمريكا وإسرائيل. وهذا الموقف من شارون حيال البوش بن البوش يعيد إلى الأذهان ذكرى المرة التي تجرأ فيها كلينتون في عهده على اقتراح صيغة غير مطابقة للصيغة الإسرائيلية آنذاك، فما كان من نتيناهو إلا أن توعد كلينتون قائلاً على الملأ: " سنشعل له الحرائق في البيت الأبيض " ! كأن المتكلم زعيم عصابة من الزعران!

مؤتمر طق الحنك:

* من هنا نصل إلى الحديث عن المؤتمر الدولي القادم في حزيران يونية المقبل حسب الاقتراح الأمريكي والترحيب العربي، لنقول إن شكوكا تبلغ نسبة ٩٠ % تحيط بجذوى هذا المؤتمر في ظل جميع ما تقدم من اعتبارات. وإضافة إلى ذلك جاء التصريح الرسمي الأمريكي يقول نصاً وحرفاً: " إن المؤتمر سيقصر على الوزراء وقد لا يقترح تسوية نهائية " .. " والغرض من الاجتماع هو إيجاد طرق للاستماع لمختلف الناس واستكشاف تشكيلة من الأفكار " .. " والهدف هو مجرد التحدث عن الأفكار واتخاذ قرار بشأن الخطوات القادمة لمحاولة حل الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. ولا أحد يشير إلى أن ذلك سيؤدي إلى تسوية نهائية. هذا ليس مؤتمر مدريد ولا أوسلو. إنه يتعلق بأخذ الأفكار التي تتولد والخطط المختلفة وعقد اجتماع وزاري بشأن كيفية التحرك للأمام. ولا مبرر لأن تعلقوا آمالاً كبيرة. " وقد علق أحد المحللين السياسيين الذي رفض ذكر اسمه قائلاً إن فكرة المؤتمر (أثيرت في اللحظة الأخيرة للحفاظ على قوة الدفع للعملية). والسؤال هو: أية عملية هذه يا ترى!؟

هذه التصريحات مع المقدمات التي أسلفناها تغني الكاتب عن الاستطراد لإقامة الدعوى على صحة استنتاجه. فالجماعة يقولون لنا سلفاً إن الاجتماع لن يكون إلا موسماً آخر من مواسم (طق الحنك) وتفسير الماء بعد الجهد بالماء. والمقصد الأمريكي من المؤتمر هو التوفيق بين مصلحة الأمريكيين في إبداء شيء من التجاوب الظاهري مع زيارة الأمير عبد الله الذي قدم للولايات المتحدة الوعد الموثق بأن المملكة ستكون ملتزمة - كما كانت دائماً - بالحفاظ على استقرار أسعار النفط، وفي الوقت نفسه اعتناق العقيدة الصهيونية في صيغتها الشارونية القائلة إن على مجتمع الدول أن لا يتدخل في الموضوع بتاتا لأنه موضوع (داخلي إسرائيلي) وإن إسرائيل تريد هدنة طويلة وفترة هدوء غير محددة يجري بعدها التباحث حول التسوية النهائية.

لم نحصل في يدنا إلا على هواء. فبعدما استمعنا إلى التصريحات الأمريكية التي أوضحت طبيعة المؤتمر ومستواه وأغراضه، لم يعد هناك مجال للآمال التي استمعنا البعض يعلقونها على هذا الدور الأمريكي الذي نشط أخيراً لتحمل مسؤولياته الدولية. إن

أمريكا تخادعنا لمصلحة إسرائيل ولمصلحتها. بالضبط كما صرحت كوندوليزا رايس عقب استلام إدارة بوش ناصية الحكم، حيث قالت: سنعمد إلى أساليب المداورة والتمويه!! وهو تصريح موثق يمكن الرجوع إليه في صحف تلك البرهة.

أين نقف نحن الفلسطينيين الآن؟ وكيف ستم ترجمة التغيرات التي طرأت منذ بداية الانتفاضة حتى الآن؟ وما الذي سيحدث بعد هذا المنعطف الذي يدعو من كل وجه لاتخاذ أقصى درجات الحيطة والحذر سياسيا ووطنيا؟؟

علينا أن نتخذ أقصى درجات الحيطة والحذر خوفا من أن تنفجر الوحدة الوطنية الرائعة التي شملتنا جميعا. وإنني في هذا الوقت العصيب أخشى النذر التي باتت مرئية ومسموعة، على انقسام الرأي ما بين الإخوة الذين يرون أن المصلحة الفلسطينية تقتضي استمرار العمليات دون هواده، على اختلاف أنواعها، ضد الإسرائيليين، وبين الإخوة الآخرين الذين يرون أن هذا النهج يجب أن يتوقف لصالح الترتيبات السياسية الموعودة في الأفق. أما الأمريكيون والإسرائيليون فلا يملون من شن الهجمات على رئيسنا المنتخب والقول بأنهم يضعون الجانب الفلسطيني للمرة الأخيرة تحت الاختبار. وهذا الاختبار - والله أعلم - هو حرب الإخوة بدلا من حرب الأعداء.

والمتسرعون الخالية قلوبهم من حب إخوتهم المختلفين معهم يبشرون بالويل والثبور. بيد أن علينا دانما أن نقدر اختلاف المنطلق ما بين الرجل الذي يحمل في ذهنه الصورة الكاملة للوضع ويتحمل وزر المسؤولية الرسمية عن الجميع وبين الرجل الذي يرى القضية في عدالتها الناصعة ويرى حتمية مواصلة الصراع دون توقف مهما كلف الثمن. وعلى الفعاليات والجماهير أن تحول ولو بأجسادها دون نشوب حرب الإخوة.

وعلىنا أن ننسب إلى شيء آخر، فقد برز في البرهة الأخيرة كلام كثير عن الإصلاح والشفافية وإعادة النظر في مؤسسات السلطة الوطنية. والغريب أن المبادرة بهذا الكلام جاءت على لسان الأمريكيين والإسرائيليين! مما يحملنا على الظن بأنها كلمة حق أريد بها باطل. فالفساد الذي نتحدث عنه الآن أجهزة العدو وطوابير هماسيه ومطلقى شائعاته هو في غالبية العظمى من صناعاتهم وإنتاجهم. فهم الأقدر على إفساد الناس عن طريق إمساكهم بناصية الوضع الاقتصادي الفلسطيني عن طريق التحكم في الاستيراد والتصدير والوكالات والامتيازات والتجارة والمواد الخام. وهذا لا يعني أن الفاسدين فئة واحدة هي فئة الذين أغنهم الاحتلال، فهناك فئة الذين شفتوا ولهطوا باستخدام مناصبهم في نهب أموال عامة وخاصة. ولكن ثروات هؤلاء لا تقارن بثروات الفئة الأولى، وسلطانهم لا يقارن بسلطانها.

هل إثارة موضوع الإصلاح ومحاربة الفساد في الوقت الحاضر مقصود منه صرف الأناظر عن شيء معين وتسليط الأضواء على شيء بديل وإحداث اضطرابات مكملة للاضطرابات التي ستنتج حول قضايا السياسة والصراع مع العدو؟

لا أدري! ولكنني أكرر إننا وقد صمدنا أمام آلة الحرب الجهنمية، يجب أن لا ننهار أمام الخطط السياسية الشيطانية!

